

التفسير المختصر - سورة يوسف (١٢) - الدرس (٤-٠٤) : تفسير الآية ٦ نعمة الوجود .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٣٠-١٠-١٩٩٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزردنَا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنها وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الأخوة الكرام، لازلنا في الآية السادسة الكريمة من سورة يوسف وهي قوله تعالى:
﴿وَكَذَّكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَلْ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾

[سورة يوسف]

مرکز النقل قوله: ويتم نعمة عليك، فلا شك أننا جميعاً ممتنعون بنعمة الوجود، وهي نعمة كبرى، قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ إِنْسَانٍ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١)﴾

[سورة الإنسان]

فأنت الآن موجود، فإذا كان هذا الوجود من أجل أن تسع بالقرب من الله عز وجل فالشرط الأول محقق، وهو أنك موجود، فلو أن الله تعالى خلق الخلائق ليُسعدُهم، فإذا لم تكن موجوداً لم تتحقق فيك هذه النعمة، لذا أول نعمة هي الإيجاد.

هناك نعمة أخرى، وهي نعمة الإمداد، فهناك هواء تستنشقه؛ إذ هناك مذنب من شدة التلوث لا تستطيع أن تستنشق، ففي بعض البلاد يأخذون عشرات الألوف بسبب الاختناق.

وهناك ماء تشربه، وبين تأوي إليه، وهناك عمل ترتفق منه، هذه كلها نعم، لكن هذه النعم المؤمن وغير المؤمن فيها سواء، إلا أنـ هنا الدرسـ تمام النعمة الهدى، فمهما غرقـتـ في نعمـ كثيرةـ، فـهذهـ نـعمـ، ولكنـ لاـ تـتمـ إلاـ بـعـرـفـةـ اللهـ عـزـ وـجلـ، لذلك درسناـ الـيـومـ، قالـ علمـاءـ التـفـسـيرـ بالـحرـفـ الـواـحـدـ: تمامـ النـعـمـ الـهـدـىـ، فـالـإـنـسـانـ إـذـ لـمـ يـهـنـدـ إـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ، هـذـهـ النـعـمـ الـتـيـ بـيـنـ يـدـيـهـ نـعـمـ زـائـلـةـ، وـتـقـطـعـ بـالـمـوـتـ، وـعـنـ الـمـوـتـ كـلـ هـذـهـ النـعـمـ تـقـطـعـ، لـكـنـ النـعـمـ الـتـيـ تـتـمـ هـذـهـ النـعـمـ؛ وـهـيـ نـعـمـ الـهـدـىـ، لـنـ تـعـرـفـ قـيـمـتـهاـ إـلـاـ بـعـدـ الـمـوـتـ، يـجـبـ أـنـ تـرـىـ فـيـ الـدـنـيـاـ الـآنـ؛ مـؤـمـنـ فـقـيرـ، وـكـافـرـ غـنـيـ، وـمـؤـمـنـ ضـعـيفـ، وـكـافـرـ قـوـيـ وـمـؤـمـنـ مـرـيـضـ وـكـافـرـ صـحـيـحـ، وـمـؤـمـنـ مـسـتـضـعـفـ، وـكـافـرـ مـتـكـرـ لـكـنـكـ لـاـ تـعـرـفـ نـعـمـ الـهـدـىـ حـتـىـ تـتـهـيـ هـذـهـ الـحـيـاةـ وـيـغـرـزـ النـاسـ لـاـ بـحـسـبـ أـمـوـالـهـمـ وـلـاـ بـحـسـبـ قـوـتـهـمـ، بـلـ بـحـسـبـ مـعـرـفـتـهـ بـالـلـهـ، وـأـعـمـالـهـمـ الـصـالـحةـ، لـذـكـ أـرـدـتـ أـنـ أـقـفـ عـنـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ

في هذه الآية: ويُتَمَّ نعمته عليك ؛ لأنَّ الله عز وجلَّ أَنْعَمَ على كُلِّ الْمَخْلوقاتِ، وأَعْطى المَالَ لِمَنْ لا يُحِبُّ ؛ أَعْطاه لقَارُونَ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَتَوَعَّدُ بِالْعُصْبَةِ أُولَئِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦)

[سورة القصص]

وأَعْطى السُّلْطَةَ لِمَنْ لا يُحِبُّ، فَقَدْ أَعْطَاهَا لِفَرْعَوْنَ، وَأَلْمَ يَقُلُّ فَرْعَوْنُ: أَلِيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ؟!! أَلْمَ يَقُلُّ: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ؟ لَكِنَّهُ تَعَالَى أَعْطَى الْمُلْكَ لِفَرْعَوْنَ، وَأَعْطَى الْمُلْكَ لِسُلَيْمَانَ، فَالْمُلْكُ يُعْطِيهِ لِمَنْ يُحِبُّ، وَلِمَنْ لا يُحِبُّ، فَالْمُلْكُ لَا يُعَدُّ مِقِيَاسًا.

كُلُّ مِنَا يَسْتَشِقُ الْهَوَاء ؛ الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ، فَهَلْ اسْتَشَاقَ الْهَوَاء عَلَمَةُ الإِيمَانِ؟ لَا، وَهُلْ هِيَ عَلَمَةُ كُفْرٍ؟ لَا، كُلُّهُذَا لَا عَلَاقَةَ لَهُ فَالْقَاسِمُ الْمُشْتَرِكُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ يُنَحِّي عَلَى أَنْ يَكُونَ مِقِيَاسًا.

سَمِعَ سَيِّدُنَا عَوْفَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَقُولُ: أَخْشَى أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ حَبْوًا، فَقَالَ وَاللهِ لَا يَدْخُلُنَّهَا خَبِيًّا !! أَيْ هَرْوَلَةً، وَقَالَ: وَمَا عَلَيَّ إِذَا كُنْتُ أَنْفَقُ مَانَةً فِي الصَّبَاحِ فَيُؤْتِنِي اللَّهُ أَلْفًا فِي الْمَسَاءِ، أَحَدُ الصَّحَابَةِ الْأَنْصَارِ عَرَضَ عَلَى سَيِّدِنَا ابْنِ عَوْفٍ: نَصْفُ مَالِهِ، وَنَصْفُ بِسَاتِينِهِ، وَنَصْفُ حَوَاتِينِهِ، فَقَالَ: لَا يَا أخِي، بَارَكَ اللَّهُ بِمَالِكَ وَلَكَ ذُلْنِي عَلَى السُّوقِ فَمَا رَأَيْنَا نَاسًا أَنْقِيَاءَ كَالْأَنْصَارِ، وَمَا رَأَيْنَا نَاسًا أَعْفَةَ كَالْمُهَاجِرِينَ وَلَمْ يَرُوْ التَّارِيخَ أَنَّ مُهَاجِرًا أَخَذَ مِنَ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ السَّخَاءُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَثِيرًا.

فَتَمَامُ النِّعْمَةِ الْهُدَىِ، وَالله تَعَالَى أَعْطَانَا نِعْمَةَ الْوُجُودِ، وَأَعْطَانَا نِعْمَةَ الْإِمْدادِ، فَمَا دَامَ هُنَاكَ طَعَامٌ وَشَرَابٌ وَمَأْوَى، وَزَوْجَةٌ تَلُوِّي إِلَيْهَا فَهَذِهِ نِعْمَةٌ إِلَّا أَنَّهَا تَنْتَهِي عَنِ الْمَوْتِ، وَكَمَا قَلَّنَا الْمُلْكُ وَالْمَالُ لَيْسَا مِقِيَاسَيْنِ وَلَكِنَّ الَّذِي أَحَبَّهُ اللَّهُ تَعَالَى مَاذَا أَعْطَاهُ؟ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدُدَهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤)

[سورة القصص]

الْحِكْمَةُ فِي التَّصْرِيفِ، وَالْحِكْمَةُ أَنْ تَقُولَ الشَّيْءُ الْمَنَاسِبُ فِي الْوَقْتِ الْمَنَاسِبِ فِي الْمَكَانِ الْمَنَاسِبِ، وَمَعَ الرَّجُلِ الْمَنَاسِبُ، وَالْحِكْمَةُ أَنْ تُعْطِيَ الشَّيْءَ الْمَنَاسِبَ لِلرَّجُلِ الْمَنَاسِبَ بِالْفَدْرِ الْمَنَاسِبَ فِي الْوَقْتِ الْمَنَاسِبِ، وَالْحِكْمَةُ أَنْ تَغْضِبَ الْغَضَبَ الْمَنَاسِبَ فِي الْوَقْتِ الْمَنَاسِبِ مَعَ الرَّجُلِ الْمَنَاسِبِ، فَالْحِكْمَةُ أَكْبَرُ عَطَاءِ تَنَاهَى مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُوا

الْأَلْبَابِ﴾ (٢٦٩)

[سورة البقرة]

أَعْظَمُ عَطَاءِ مِنَ اللهِ تَعَالَى، إِلَّا أَنَّ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ هُما خَاصَّانِ لِمَنْ يُحِبِّهُ اللهُ تَعَالَى، فَالَّذِي لَا يُحِبِّهُ يُعْطِيهِ الْجَهْلُ وَالْحُمْقُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١)

[سورة محمد]

لا بدّأن يرتكب حماقةً وشيئاً غير مَعْقُولٍ، وإذا أراد ربّكَ إِنْفاذَ أَمْرٍ أَخْذَ من كُلِّ ذي لُبٍّ لُبَّهُ، فارتِكابُ الحماقاتِ من لوازِمِ الْكُفْرِ، والدُّعَاءُ الشَّرِيفُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ تَدْبِيرَهُمْ فِي تَدْمِيرِهِمْ، يَعْقُدُونَ المؤْتَمِراتِ مِنْ أَجْلِ إِفْسَادِ الشُّعُوبِ، وَلَا زَمِ لِشُعُوبِ الْعَالَمِ الثَّالِثِ بَعْدَمَا أَجْئَوْهَا الْفَقْرَ الْمَرِّ، يُلْوِحُونَ لَهَا بِالْمُسَاعِدَاتِ السَّخِيَّةِ كُلَّ هَذَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تُصْدِرَ هَذَا الشُّعُوبَ قَوَانِينَ تُبْيَحُ الزِّنَا وَاللَّوَاطِ وَالسِّحَاقِ وَتَجْعَلُ الْعَلَاقَاتِ الْجِنْسِيَّةَ خَارِجَ الْأَسْرَةِ، وَمَا عَلَى الْأَبِ إِلَّا أَنْ يَرْعِيْ أَوْلَادَهُ الْمُرْاهِقِينَ مَارسُوا الْجِنْسَ، وَيُقْدِمُ لَهُمُ التَّسْهِيلَاتِ، مَاذَا حَصَلَ؟ قَالَ تَعَالَى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)

[سورة الأنفال]

لَا تَوْجُدْ شَهْوَةً أَوْ دَعَاهَا اللَّهُ فِي الْإِنْسَانِ إِلَّا رَسَمَ لَهَا قَنَاعًا نَظِيفَةً، أَمَّا الْأَنْجَارَافُ مِنْ صَفَاتِ الْجَهَلَةِ.
أَيْهَا الْأَخْوَةُ، أَنَا أَرَدْتُ أَنْ أَقِفَّ عِنْدَ كَلْمَةِ وَاحِدَةٍ، وَلَيْتَمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ فَلَا تَظْنُنَّ أَبَدًا أَنَّكَ فِي نِعْمَةٍ إِنْ
لَمْ تَكُنْ مُهْتَدِيًّا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، نِعْمَةُ الْمَالِ وَالصِّحَّةِ وَالْمَلَكِ وَالزَّوْجَةِ وَالْبَيْتِ الْوَاسِعِ الْمُزِينِ
وَالْمُزَخْرِفُ؛ كُلُّ هَذِهِ تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ، فَلَا تَبْقَى إِلَّا نِعْمَةُ الْهُدَىِ، لِذَلِكَ احْفَظْ هَذِهِ الْعِبَارَةَ: تَنَامُ
نِعْمَةُ الْهُدَىِ، وَلَمْ تَكُونْ فِي نِعْمَةٍ عَظِيمٍ إِلَّا إِذَا كُنْتَ مُهْتَدِيًّا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِذَلِكَ كَمَا قَالَ
تَعَالَى :

وَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَلِيَّاً يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا
عَلَىٰ أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلٍ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

[سورة یوسف]

فَالنِّعْمَةُ أَنْ تَعْرِفَ اللَّهَ، وَأَنْ تَبْعَدَهُ وَتُؤْدِيَ حَقَّهُ، وَأَنْ تَكُونَ فِي خَدْمَةِ الْخَلْقِ، وَأَنْ يَكُونَ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا بِاللَّهِ.

قال الإمام علي رضي الله عنه: **النِّعْمَةُ ثَلَاثَةٌ ؛ نِعْمَةُ الصِّحَّةِ، وَنِعْمَةُ الْكَفَايَةِ، وَنِعْمَةُ الْهُدَىِ**، فلا معنى لـ**نِعْمَةُ الْكَفَايَةِ** من دون صحة، ولا معنى لـ**نِعْمَةُ الصِّحَّةِ** من دون هدى، فأول نعمة الهدى

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ
وَرُزِّقَ كَفَافًا وَقَنْعَةً اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))

[۱۹۰]

فَمَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّمَا تَنْهَايَا مَا أَعْيُشُ بِهِ فَهَذَا مَحِبُوبٌ فَقَدْ دُعِيَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنْتُ خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا شَئْتُ، وَخُذْ بِقَدْرِهَا هَمًا، وَمَنْ أَخْذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخْذَ مِنْ حَنْفِيَّهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ